سر الحمام

دخل الليل والأم تنتظر ولدها " حسونة " ، حسونه خرج ليلعب مع أترابه منذ العصر ؛ ولكنه تأخر ، فصارت الأم تتحرك بين باب البيت الخارجي وبين غرف البيت من الداخل ، وأعصابها مشدودة متوترة وكلها قلق وخوف ، وهذان يزدادان مع كل خطوة تخطوها وزمن يمضي فالزوج قادم ، فماذا ستقول له عن غياب ابنه البكر الصغير حسونه ؟! وأطفالها الآخرون يتابعون حركاتها حركات الأم القلقة المتوترة ، وهم صامتون يهابون الاستفسار ، فكلهم غارق في أفكاره الصغيرة ، والسؤال يتردد في أذهانهم وخيالهم " لماذا تأخر حسونة في اللعب خارج البيت ؟! " فكانت الوساوس تشرق بهم وتغرب ، فهذه أول مرة يتأخر ويهبط الظلام ، ولم يكن الفتى في البيت .. هل حصل له شيء ؟! هل تعرض لخطر وضرر ؟



وبينما الأم واقفة على باب الدار تراقب الأشباح في ذلك الظلام الدامس ، ظهر الصغير حسونة أمامها مسرعا فقال وهو يلهث من الركض : لقد تأخرت يا أمي .. لا تؤاخذيني .. هل جاء أبي ؟!

قبضت بيده ودخلت مسرعة ، فلم تستطع أن ترد عليه حتى سكنت أعصابها المتوترة ، وقد لحظت أنه يحمل كيسا فيه شيء يتحرك ويهتز ، فقالت : ما هذا الكيس الذي تحمله ؟ وما فيه أيها الولد ؟!

فقال همسا : زوج من الحمام يا أمي .. لي واحدة ولصاحبي وليد الأخرى ، سأخبئهما على سطح المنزل حتى الغد .. لم يعد أبي أليس كذلك ؟

جرى هذا الحوار وهما يمشيان بفناء الدار ، ثم ردت الأم على سؤال ولدها قائلة : لم يرجع أبوك بعد .. لقد خفت عليك كثيرا .. أنت تعلم أن أباك يغضب جدا إن دخل البيت ولم يجدك بين

اخوتك ..أسرع بوضع حمامتيك على السطح ، ثم نظـف نفسك قبل مجيء أبيك .
فرد حسونة : يا أمي لا تخافي عليّ ، قد كبرت وأصــبح عمري عشر سنوات .
وصــعد حســونة إلى ســطح الــبيت مســرعا ،وفي قن مهجور للدجاج خبأ الحمامتين ، وأغلق باب القن ونزل للبيت عجلا ، فغسل يديه ووجهـه وأكـل وشـرب ولبس ملابس النوم فنام .

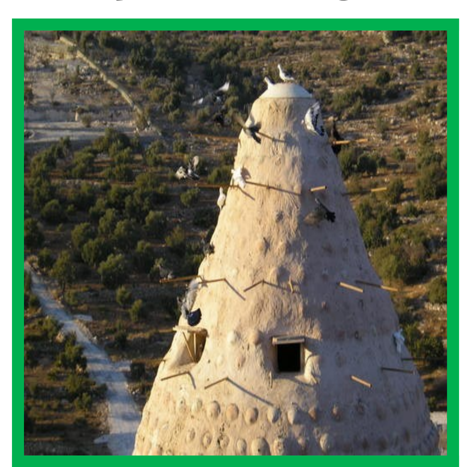


وفي الليلة التالية تأخر حســونة مرة أخرى ، وجاء الظلام وجرى للأســرة مــا جــرى ليلــة أمس ، ولمــا أتى الفــتى كــان يحمــل كيســا فيــه زوجــا من الحمــام ، فقـالت الأم : مـا الـذي أخـرك الليلة ؟ أين وعدك لي ؟
فقـال وهـو يبتسـم : يـا أمي .. صـــيد الحمــــام يحتــــاج للظلام لا تخــــافي عليّ ، ولا تقلقي ، فقد كبرت وعندي عشرة أعوام .
وصعد إلى بيت الدجاج المهجور ، ووضع فيه الحمامتين ، ونزل وغسّل ، وأكل ونام .
وفي الليلة الثالثــة تــأخر حســونة في المجيء للــبيت ؛ ولكن حضــر والــده قبلــه فســأل عنــه ، فقــالت الأم باضطراب : خرج يلعب مع الصبية وللآن لم يعـد ، لعلـه يأتي الآن .
فقال الأب عاتبا : ولمـاذا يتـأخر الصـبي في اللعب إلى العتمة يا أم حسـونة ؟ .. هـذا خطـأ كبـير يـا عزيـزتي ، قبل الليل على الأولاد أن يكونوا في البيت .. أين نبحث عنه الآن ؟؟ ولم أر أحدا في شارع الحي .. فالناس عند هبـوط الظلام يـأوون لمسـاكنهم ، والشـياطين يـا بنت الكرام كمـا تعلمين تنتشـر عنـد هبـوط الليـل ، وحـذرنا النــبي الكــريم من خطــرهم وخصوصــا على الأولاد الصغار

وبينما هما يتحاوران طرق باب البيت ففتحه الأب بنفسه ، وكان حسونة يقول بصوت عال : لماذا أنت مقفلة الباب يا أمي ؟![1]

ولما دخل شاهد والده فلزم الصمت ، فقال له أبوه : أين كنت ؟! ولماذا تأخرت في اللعب ؟ بل ما هذا الكيس الذي بين يديك وما فيه ؟

تلعثم حسونة في الإجابة على كل هذه الاستفهامات ؛ واعترف فقال : هذا زوج حمام يا أبي لصاحبي وليد ابن أبي أحمد الخياط .. طلب مني أن أحفظه له حتى الصباح .. لقد تأخرت عنده



فقال الأب : ولماذا تحفظه أنت عندك ؟

فقال حسونة بخوف : لا أدري ، طلب مني ذلك وخجلت أن اكسفه .

قال الأب : ومن وليد هذا ؟

فأجاب الطفل : وليد هو صديقي في المدرسة وفي الصف .. أنا آسف على التأخير .. لن أكرر ذلك يا أبي .. سامحني يا أبي .

قال الوالد : لا بأس .. احفظها ببيت الدجاج المهجور .. ولا تكرر مثل هذا العمل .. وأرجوك لا تحاول أن تتأخر ثانية يا بني .

فأخذ حسونة نفسا عميقا وانطلق إلى قن الدجاج ، ودخل الأب البيت ، وحدث زوجته بما سمع من حسونة ، ولزمت الأم الصمت ولم تعلق بشيء ؛ ولكن الفتاة الصغيرة " هدى " قالت : أبي .. فإن حسونة يحضر كل ليلة زوجا من الحمام .. فقد أصبح لدينا مع حمامات اليوم ستة حمامات .

---

[1] - عن جابر بن عبد الله قَالَ «وَاكْفِتُوا صِبْيَانَكُمْ عِنْدَ الْعِشَاءِ ، فَإِنَّ لِلْجن (فَإِنَّ لِلشَّيَاطِينِ) انْتِشَارًا وَخَطْفَةً ، وَأَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ عِنْدَ الرُّقَادِ ، فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ رُبَّمَا اجْتَرَّتِ الْفَتِيلَةَ فَأَحْرَقَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ » خ

التفت الأب إلى زوجته مستغربا وقال : ما القصة يـا أم حسونة ؟!
فقالت الأم : لا أدري كل مساء يأتي ومعه زوج حمــام ، ويدعي أن واحدة له والأخرى للمدعو وليد .
فغضب الأب وقال : لم يخبرني بذلك .. أمر هذا الحمام غريب ! ولابد أن يكون وراءه قصة .
وأســرع الأب مســرعا إلى حيث القن ، فوجــد الفــتى يغلقه فقال : دعه يا ولد .. كم حمامة هنا ؟
لم يتكلم حسونة ، فاقترب الأب وفتح باب القن ، وأنـار المصباح وأحصى الطيور ، فتأكد من صدق كلام هـدى ، ونظر إلى حسونة المضطرب ، وقـال وفي صـوته نـبرة حادة : ما قصة هذا الحمام يا سيد حسونة ؟!
فرد الفتى بخوف وتلعثم وارتباك: هو .. هو .. لصديقي وليد ابن الخياط أبي أحمد
فقـال الأب بحـدة ونـبرة تهديـد : علمت وفهمت أنـه لوليد .. ومن أين أتى به وليد هذا ؟!
فرد حسونة : من عندهم .
فقال الأب وهو يغلق القن ويمسـك حسـونه من إحـدى يديه : خذني لبيت وليد هذا لنفهم منه قصـة الحمـام .. ولماذا يعطيك إياه وليد هذا ؟! .. أنا لا أفهم ذلك ؟
أجاب حسـونة المرتبـك : طلب مـني أن أخبئـه لـه حـتى يبيعه في سوق الطيور .
قال الأب وهو يدقق النظر في هيئـة ابنـه : يـا ولـدي .. الكذب رائحته في كلامك ، ما الحقيقة ؟
ونزل الأب السـلم وهـو مـا زال ممسـكا بيـد حسـونة ، فلما صارا في صحن البيت صاح الأب : يـا أم حسـونة .. نحن ذاهبان لبيت أبي أحمـد الخيـاط لنعـرف القصـة .. قصة حمام حسونة .
عندئذ قال حسـونة لمـا رأى إصـرار أبيـه على معرفـة حكاية الحمام : أبي .. سأقول لك قصة الحمــام بس لا تزعل مني ولا تضربني .
قال الأب وهو يكظم غيظـه ويخفـف من حـدة غضـبه : الآن أحسنت ! .. تعال لنجلس داخل البيت.
ولمـا جلسـا وحـدهما قـال الأب : أسـمعني قصـة هـذا الحمام ؟

وأصغى الأب لولده مستمعا لقصة طيور الحمام ، فقال حسـونة : أعـدك يـا أبي بالتوبـة والنـدم .. ولن أكـرر خطئي .
تبسم الوالد وقـال : الحمـد للـه أنـك تـدرك أنـك فعلت خطأ .. فلنستمع لهذا الخطأ .
قال حسونة معترفا بسـر الحمـام : وليـد صـاحبي هـو الذي شجعني وأغـراني على اختلاس الحمـام من مـنزل أبي خليل .. أبو خليل عنده حمام كثير .. فعنـدما يـدخل الليل نتسلق على جـدار مـنزل أبي خليـل .. ثم نمشـي عليـه خطـوة خطـوة حـتى نصـل سـطح بيتـه بيت أبي خليــل .. وهنــاك أقفــاص الحمــام ، فيأخــذ كــل منــا حمـامتين ، ونعـود بهمـا لبيوتنـا على أمـل بيعهم في سـوق الطيـور الكبـير .. فهـذه يـا أبي قصـة الحمـام .. ضحك عليّ وليد فجاريته .
فقال الأب بعد صمت عميق وبهدوء تـام : أيهـا الولد ! أسأت لنفسك ولأهلـك ولجارنـا ، وأمـك أخطـأت بعـدم الضغط عليك لمعرفـة سـر هـذه الحمامـات ، ويـا ليتهـا روت لي ذلك من البداية .. وبما أنك تعترف بهذا الفعـل الشنيع .. سأتجاوز عنك هذه المرة ، وأرجو أن لا يتكـرر منك هذا التصرف الفاحش ، فأنت تعرف غضبي .. هات الحمامات لنذهب إلى بيت أبي أحمد .
استغرب الجار أبو أحمد لهـذه الزيـارة الليليـة ، ولمـا اسـتمع الحكايــة زال اسـتغرابه ، وأقــر وليــد بعملــه السـيئ ،وغضـب أبـو أحمـد الخيـاط من ولـده وأراد أن يضربه ، فتشفع فيه والد حسونة قائلا : اعفو عنه هــذه المرة من أجلي يا أبا أحمد ! ولابد يا جـاري العزيـز من الذهاب لأبي خليل الساعة ونعيد له حماماته جميعهـا ، ونعتـذر إليـه ، ونطلب منـه أن يسـامح الصـبيين وليـدا وحسونة .

انتهت